# القسم الأول

## علم الاجتماع الريفى

**الفصل الأول :** علم الاجتماع الريفى

**الفصل الثانى :** الأسرة القروية

**الفصل الثالث :** الفولكور — ودراسات علم الاجتماع الريفى

**الفصل الرابع :** دراسات ميدانية على بعض المجتمعات الريفية

**الفصل الخامس :** الفروق الريفية الحضرية

# الفصل الأول

## علم الاجتماع الريفى (*)

تعانى دراسة المجتمعات الريفية ، او علم الاجتماع الريفى ، من الغموض الشديد بحيث يصبح من الضرورى اذا أردنا الوصول الى فهم حقيقى ان نلقى الضوء التام على موضوع هذه الدراسة وتطورها وحدودها .

---

(*) ترجمت هذا الفصل الدكتورة علياء شكرى عن المصدر التالى :

Henri Mendras, «Sociologie du Milieu rural», dans Georges Gurvitch (ed.) Traite de Sociologie. T. I., Press universitaire de France, Paris, 1952, pp 315-331. —

وهنرى مندرا من علماء الاجتماع الريفى البارزين في فرنسا . ولد في ١٦ مايو ١٩٢٧ ، ودرس القانون والتاريخ الاقتصادى والجغرافيا الاقتصادية وعلم الاجتماع في جامعتى باريس وشيكاغو . وشارك في عديد من البحوث السوسيولوجية ، أبرزها تلك التى تمت تحت اشراف جورج فريدمان ، ولونرا . وهو يعمل حاليا في المركز القومى للبحوث السوسيولوجية ، Centre d'Etudes Sociologique, Paris.

كما يحاضر في موضوع علم الاجتماع الريفى في معهد العلوم السياسية التابع لجامعة باريس . ومن اهم مؤلفاته :

١ ــ دراسات في علم الاجتماع الريفى ، ١٩٥٣ .

٢ ــ تحديث الزراعة ــ العامل الانسانى . ( مقال ) ١٩٥٤ .

٣ ــ المدن والريف . ( مقال ) ١٩٥٤ .

٤ ــ الأبنية الايكولوجية والاجتماعية في المناطق الزراعية الفرنسية ، التى لم تتطور بعد بالقدر الكافي . ( مقال ) ١٩٥٦ .

٥ ــ الثورة الزراعية . ( مقال ) ١٩٥٦ .

٦ ــ الفلاحون في مواجهة تحديث الزراعة ، ١٩٥٨ .

هذا علاوة على عدد كبير من المقالات والكتب الأخرى التى لن يتسع المجال لحصرها جميعا . ( المترجمة )

تمثل البيئة الريفية مجالا للبحث بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية ، ولا يمكن أن تشكل دراسة هذه البيئة الريفية علما واحدا قائما بذاته . وقد كان من الطبيعى أن يبدأ الجغرافيون ، الذين يقومون بتحليل العلاقات بين الانسان والبيئة الطبيعية ويدرسون التوزيع المكانى للظواهر الانسانية بالاتجاه نحو الريف . ويعتبر الاقتصاد الزراعى فرعا من الاقتصاد السياسى ( بل ومن أقدم فروعه ) (١) . ويهتم التاريخ الاجتماعى بالماضى الذى كانت الزراعه تمثل فيه نشاط الغالبية العظمى من البشر ولذلك نجده يفسح مجالا كبيرا لوصف الحياة الريفية . كذلك يدرس الأنثولوجيون الأبنية التى توصف بأنها ابنية عتيقة archaiques وهى ابنية يشغل البحث عن الغذاء أو انتاجه فيها جميع البشر . واخيرا فان سكان المدن وسكان الريف يشغلون أيضا اهتمام علماء النفس والديموجرافيين .. الخ . وبما أن سكان الريف بشر مثل غيرهم ، فانهم يدخلون فى اختصاص كل علم اجتماعى ، ولكنهم يعيشون فى بيئة خاصة تتطلب نوعا من التخصص لدى الباحث كما تتطلب أحيانا تناولا مختلفا .

وهكذا ينبغى على عالم الاجتماع الريفى ان يكون على دراية بمناهج وتقنيات جميع العلوم الاجتماعية ــ شأنه فى ذلك كعالم الانثولوجيا ــ اللهم الا اذا استعان بفريق من المتخصصين المتنوعين . وقد أدرك جوستى Gusti

---

(١) من الملاحظ أنه لا توجد حتى الآن مقدمات فرنسية شاملة في علم الاقتصاد الزراعى . قارن .

Jules Milhau, Traité d'économie rurale, 2 tomes. Paris P.U.F. 1954, 264 p. et 178 p.

انظر كذلك :

J. Klatzmann, La localisation des cultures et des productions animales en France, I. N.S.E.E., Imprimerie nationale', 1955, 477 p.

وان كنا نجد أن المؤلفات الكلاسيكية الكبرى التى ظهرت في القرن التاسع عشر غنية دائما بالمعلومات . قارن منها على سبيل المثال :

Comte de Gasparn. Cours d'agriculture, Paris, Librairie agricole de la Maison rustique, 6 Vol. 2e éd., 1846 - 1860.

فى رومانيا هذا المطلب تماما فأحاط نفسه بفريق بحث متنوع ( فيهم قانونيين ، وزراعيين .. الخ ) ، وتمكن من خلال مساعدة التخصصات المتنوعة فقط من انجاز دراسة منهجية لقرى نيريج Nereg (٢) . وعلى العكس من ذلك نزع علماء الاجتماع الريفى الامريكيين الى الاقتصار على تخصص واحد * . ويضم فريق البحث المتعدد الأفراد عندهم متخصصين فى كل مشكلة مثل : التغير ، والقيم ، وجماعات الجيرة ، .. الخ . ويمكن تفسير هذا الموقف بسهولة . فقد تطور علم الاجتماع الريفى أولا فى كليات الزراعة بفضل مساندة وزير الزراعة الفيدرالى الذى كان يسعى الى استخدام أساليب علم الاجتماع لتحسين فعالية طرق التوسع الزراعى . وهكذا يمكن مقارنة علم الاجتماع الريفى الامريكى من هذا الجانب بعلم الاجتماع الصناعى . فهو يندمج فى نمط معين من أنماط البناء الاجتماعى يستهدف تحسينه ، ونادرا ما يهتم بدراسة هذا البناء نفسه بشكل شامل . هذا علاوة على بعض المجتمعات الزراعية المحلية من وجهة نظرهم ، التى تعرف بالطابع « الشمولى » . واذا لم نضيق مجال علم الاجتماع الريفى بحيث نجعل منه علم اجتماع زراعى متخصص ، فانه يصبح من الممكن تعريفه عن طريق مجال دراسته وهو المجتمعات الريفية ، مع مراعاة أنه يتطلب معاونة جميع العلوم الاجتماعية لتحقيق النظرة المتكاملة الى مختلف جوانب الحياة الريفية . من هذا المنظور يضع عالم الاجتماع الريفى نصب عينيه تحقيق مهمة مزدوجة ، فهو يدرس بنفسه جوانب المجتمع التى تدخل فى تخصصه أو تخصصاته ، ثم هو من ناحية أخرى يعيد تفسير المواد التى يتيحها له الباحثون فى العلوم الأخرى ويربط بينها ويدمجها من وجهة نظره . ويبدو لنا أن هذا التعرف الجامع يفرض نفسه فى البلاد التى تمارس الفلاحة التقليدية وخاصة فى فرنسا . ويحتفظ المجتمع الكبير ، كما يستحيل حصره فى جماعة مهنية او فى قطاع اقتصادى أو طبقة اجتماعية واحدة أو غير ذلك .

---

(٢) Gusti et al., Les Villages des Nereg, Bucavest, 1940.

(*) من الوضع الراهن للدراسات الاجتماعية الريفية في الولايات المتحدة أنظر . محمود عودة ، القرية المصرية بين التاريخ وعلم الاجتماع ، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة ١٩٧٢ . ( المترجمة )

كما ينبغى على عالم الاجتماع أن يطوع مناهجه فى البحث لبناء المجتمع الذى يدرسه . وهكذا فسوف نرى أن القرية أو الاقليم الصغير ( البلد ) ستظل عبارة عن عوالم مستقلة استقلالا ذاتيا نسبيا وينبغى الاقامة فيها بالضرورة لفهم تماسكها الداخلى . ولا يمكن تصور القيام بدراسات موسعة حول مشكلة محددة فى تجمعات اقليمية أوسع ، رغم فائدتها ، دون وجود دراسات مونوجرافية محددة تتيح اعادة وضع المشكلة موضوع الدراسة داخل الكيان الكلى لمجتمع معين . على سبيل المثال فان نظرة احد الفلاحين الى العالم مشروطة بالطابع المميز الخاص لقريته ، وينبغى تحليل هذه الصفات المميزة الخاصة لفهم تلك النظرة . وهكذا يتضح أن الدراسة المونوجرافية لقرية ما أو بلد ما لا تزال من اكثر المناهج المثمرة بالنسبة لعالم الاجتماع الريفى .

كما أن اللجوء الى التاريخ يمثل ضرورة لازمة لدراسة المجتمعات القروية التقليدية ، حتى وان كانت عرضه للتغير السريع . وقد بدا ميدان علم الاجتماع التاريخى للريف الفرنسى — والذى ساهم المؤرخون جزئيا فى القاء الضوء عليه — يجذب انتباه علم الاجتماع (٣) . ولن تمكننا الحدود الضيقة لهذا الباب من تناول هذا الموضوع ، بحيث نكتفى بأن نبرز أهميته الخاصة لدراسة المشاكل المتصلة بنشأة الظواهر الاجتماعية من ناحية ، وبالنسبة لأية محاولة لتفسير الحاضر من ناحية اخرى .

واذا كان عالم الاجتماع الريفى يرفض أن يضع حدودا فكرية لنشاطه ، الا انه ينبغى عليه أن يضع حدودا لمجال البحوث التى يقوم بها ، وان كانت تلك الحدود تتوقف على البحث ، ولا يمكن تحديدها مسبقا . فالانتقال من البيئة ( الريفية ) الى البيئة الحضرية يتم لا شعوريا فى منطقة هامشية تتبدل بصفة مستمرة . وسيكون من الملائم بالنسبة لكل اقليم القيام بدراسة هذه الظاهرة « على الطبيعة » ، وسنرى أن محكات التحليل والأنماط الوسيطة لم يتم بعد تحديدها بطريقة مرضية . ولا يبقى أمامنا اذن سوى

---

(٣) راجع وجهة نظر هنرى لينيفر :
Henri Lefebvre, Les Communautés Paysannes Pyréneénes.

تحديد البيئة الريفية من حيث علاقتها بالمدنية . وطالما لا توجد مدينة فلن يكون هناك مجتمع ريفى بالمعنى الدقيق ولكن سيكون هناك مجتمع « بدائى » أو مجتمع عتيق « archaique » ويقول ردفيلد R. Redfield (٤) عالم الاثنولوجيا الأمريكى أن البدائيين Les sauvages يعيشون فى مجتمعات محلية محدودة نادرا ما تضم أكثر من مائة أسرة ، حيث يشترك الجميع فى عملية توفير الغذاء . ويؤدى التماسك العميق القائم بين أفرادها الى رفض تام للعالم الخارجى . فأولئك الذين لا ينتمون الى الجماعة لا يعتبرون بشرا بمعنى الكلمة . والريفيون ، على عكس ذلك ، يعترفون بوجود مجتمع أوسع يحتلون موقعهم فيه . وفى العصور الوسطى ، حيث كان الطابع الريفى يسود المجتمع الكبير من جوانب كثيرة ، كان القصر والاقطاع يمثلان واقعا اجتماعيا يختلف عن الفلاحين ، بحيث أن هؤلاء الفلاحين كانوا يعترفون به على علاته ، وان كانوا لا يخضعون له الا بعناء شديد . ومجمل القول ان المجتمع الريفى يعتبر باستمرار عنصرا فى مجتمع أوسع ، ويعد فى مجتمعاتنا المعاصرة التى تسيطر عليها المدينة عنصرا هامشيا وخاضعا .

ولكن اذا كانت البيئة الريفية تستمد تعريفها بالضرورة من حيث علاقتها بالمدينة ، الا أن هذه البيئة تتميز أيضا ببعض الملامح السائدة التى تكسبها سمتها المميزة ، والتى تتمركز حولها الموضوعات الأساسية لأبحاث عالم الاجتماع الريفى .

---

(٤) Robert Redfield, Peasant Society and Culture, an anthropological approach to Civilization, Chicago, university of Chicago press, 1956, p. 163.

وقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب أعدها الدكتور فاروق محمد العادلى ، صدرت عن الهيئة العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٣ م ( المترجمة ) .

## أولا : التأثير الطاغى للاتساع المكانى

تفرض البيئة الطبيعية نفسها بقوة على الانسان الذى يعمل فى الأرض. وقد حلل علماء الجغرافيا جميع العلاقات التى يمكن أن توجد بين المزارع والأرض . وحدد بيير جورج Pierre George مؤخرا دراسات هؤلاء الجغرافيين ( فى كتابه « الريف » La Campagne (٥) . ولذلك فان عالم الاجتماع لا يهتم بوضع جغرافيا بشرية جديدة تحت اسم « الايكولوجيا » écologie وسوف تتمثل مشكلته الجوهرية فى دراسة النتائج الناجمة عن خضوع المجتمعات الريفية للاتساع المكانى لتلك البيئة أكثر من حرصه على معرفة كيف خلق الانسان المعمور الريفى .

وقد استطاعت المدينة والصناعة أن تتحرر من هذا الخضوع بتركيز البشر والآلات فى مجال محدود ، بل وتحت سقف واحد أحيانا . بينما يعمل المزارع فى مجال واسع حيث يستخدم الأرض التى تعتبر مادته فى الانتاج فى نفس الوقت . وسواء كان المزارع يسكن فى مدينة زراعية Ville agricole فى جنوب ايطاليا ، أو مزرعة منعزلة فى أحراش مقاطعة بريتون Breton فان المسافة تعد بالنسبة له عنصر رئيسيا . وهو يستطيع كما يشاء أن يقلل المسافة التى تفصله عن حقله ، ولكنه يبتعد عندئذ عن جيرانه . وهو يوثيق روابطه بالأرض يبعد الروابط التى تربطه بالبشر الآخرين .

وقد ترك التاريخ فى البلاد القديمة أبنية تختلف من اقليم لآخر ، ولكنها أبنية ترجع الى عنصر اكتظاظ السكان . وبالتالى فهى تفتقر اليوم الى جوهرها المميز بسبب الهجرة الجماعية الريفية . وتعد الدراسات الدائرة حول الحد الأمثل للسكان فى المناطق الريفية ما زالت فى فرنسا فى بداياتها بعد . وقد عرض أ . سوفى A. Sauvy مقدماتها المنطقية النظرية عقب اجراء

---

(٥) Pierre George. La Campagne, Paris, P. U. F., 1956.

بعض الدراسات الاستطلاعية المحلية . ولكن الجوانب الديموجرافية والاقتصادية لهذه المشكلة استطاعت ان تلفت النظر الى أهميتها وضرورتها العاجلة .

وقد كانت القرية أو مجموعة القرى تشكل فى الماضى عالما عديدا متنوعا بما يحقق له الاكتفاء الذاتى والعيش فى اكتفاء اقتصادى وسكانى واجتماعى وثقافى نسبى (٦) . وكانت كل أسرة ريفية تنتج كلّ شىء تقريبا لكى توفر احتياجاتها الاساسية . وكان الحرفيون يقدمون الاحتياجات التكميلية التى كانت صناعتها تتطلب تخصصا معينا . ولم يكن المرء بالطبع يذهب للبحث عن زوجة بعيدا عن جاره المباشر . وبالتالى فان كل الحياة الاجتماعية كانت محصورة فى اطار القرية أو « البلد » . وكانت كل قرية تطور ثقافتها الذاتية التي تختلف اختلافا طفيفا عن ثقافة جيرانها .

وكان شرط هذا الاكتفاء الذاتى ، تحت ظل التماثل الظاهر فى نوع الحياة وهو تنوع الأوضاع الاقتصادية والعائلية والشخصية . فالحرفيون ، وعمال الحرث الذين يملكون دواب للمحراث الواحد أو لأكثر من محراث ، وعمال صناعا البيرة brassiers الذين يعيشون من عمل أيديهم ، ويملكون أحيانامنزلا أو قطعة من الأرض . وما هو الفرق فى وسط عمال الحرث بين ذلك الذين يملك زوجا من الأبقار وبين صاحب الضيعة الذى يملك عدة ازواج من الثيران أو الخيول ورب الأسرة الممتدة « وصاحب » عدد من « الزبائن » من عمال صناعة البيرة brassiers الذين كانوا يحضرون للعمل فى أرضه ويقترضون منه المحراث أو يتبادلون معه خدمة ما . وقد وصف علماء الاثنولوجيا (٧) دور ووظائف طبقات العمر classes d'age التى كانت تشكل فيه جماعات حقيقية داخل مجتمع القرية ، والشبان الذين يقومون باحياء

---

(٦) تشكل الملامح التى نقوم بتحليلها هنا نموذجا مختصرا جدا ينبغى أن يوضع من جديد فى داخل الآفاق التاريخية لكل منطقة ولكل مجتمع . ولا يسمح حجم هذا الباب بذلك.

(٧) أنظر حول هذا الموضوع :

Andre Varagnac, Civilisation traditionelle et genres de Vie, Paris, Albin Michel, 1948, 400 p.

الأعيان ، الكبار الذين يضمنون حسن سير الاقتصاد ، والقدماء الذين يحافظون على الميراث الثقافى الشامل . وكان كل جنس داخل طبقات العمر هذه يقوم بالوظائف الخاصة التى كان يمليها عليه التراث . كما كانت الأسر تنقسم فى التقدير الجماعى للقرية بين « الأسر الطيبة » bonnes Familles والأسر « القديمة » Vieilles Familles ، والأسر الأخرى . وكان هـذا التقييم « الأخلاقى » ، بالاضافة الى التقييم الاقتصادى ، يحدد عمليات الزواج والعلاقات اليومية . وهكذا كانت هناك مجموعة من الارتباطات التى تسمح بوضع كل فرد فى مكانه داخل سلم المجتمع القروى . ولم يكن هناك شخصان على الاطلاق يملكان الصفات المميزة بالضبط بحيث كان لكل فرد دوره الخاص الذى يلعبه فى تحقيق التجانس الواضح للجماعة .

وكان يوجد على هامش هذا المجتمع القروى « الأعيان » والنبلاء او « البرجوازيون » والملاك الذين لايستغلون أراضيهم بأنفسهم ، والأطباء والموثقون ، ووسطاء الأعمال ، وأصحاب المصانع ... الخ . وينبغى أن نضم الى هؤلاء رجال الدين بالكنيسة ، كما ينضم اليها اخيرا ، وفى وضع خاص فئة المعلمين . وحيث أن هؤلاء يعيشون على الأرض ، بشكل مباشر او غير مباشر ، فانهم كانوا يعدون من القرية او « البلد » التى كانوا يشتركون فى ثقافتها . ولاشك انه كانت هناك مصالح كثيرة تجعلهم فى تناقض مع الفلاحين . ولكن هؤلاء الفلاحين ، سواء قبلوهم او رفضوهم ، كانوا يرون فيهم ، تحققا لمثلهم الأعلى والصورة الذى يستهدفوها فى الحياة ، ووسطائهم لدى المجتمع الكبير الذى يجهلون خفاياه . وحيث أن الأعيان وحدهم هم الذين كانوا يتزوجون من خارج « البلد » ويقيمون اتصالات بالعالم الخارجى ، فانهم لم يكونوا محصورين فى الحيز اليومى مثل القرويين الآخرين . فكانوا بذلك يتجاوزون جماعة المعرفة الداخلية Groupe d'inter — Connaissance التى يعتبرون أعضاء فيها .

وعرف هذا المجتمع القروى ذروة زيادته السكانية خلال القرن التاسع عشر ، وان اختلف هذا التوقيت بعض الشىء من اقليم لآخر . ثم اضطر عندما وصل الى نقطة عدم التوازن ، حيث لم تعد موارده تكفى سكانه ،

الى الانفتاح على العالم الخارجى وتحطيم اكتفائه الذاتى . وكان العمال اليدويون غير المهرة اول من توجه ليعمل فى المدينة فى المصانع الناشئة . وتبعهم بعد قليل عدد كبير من الأعيان حيث شغلوا وظائف فى الجهاز الحكومى ، او استثمروا اموالهم فى الصناعة . ولما كانت هذه الصناعة توفر منتجات بسعر افضل اصبحت منافسا للحرفيين الذين اضطروا بدورهم الى هجرة القرية . كما شهدت المدينة الصغيرة أيضا توقف مصانعها وهجرة ابناء الطبقات البرجوازية منها . وظل الفلاحون فقط فى « البلد » بينما اتخذ ابناؤهم طريقهم الى المدينة . وهكذا انخفض عدد سكان المجتمع القروى الى النصف واحيانا الى الثلث ، واقتصر على جماعة من المشتغلين بالزراعة . وبهذا فقد المجتمع القروى كثافته وتنوعه ، وهى أمور تمثل شروط استقلاله الذاتى الاجتماعى والثقافى . وتمكنت بعض الأسر لفترة من الزمن من جعل هذا المجتمع يستمر فى الحياة فى بعض القرى التى تناقص سكانها ولكن دون جدوى ، فقد ادى تقدم وسائل النقل الفردية ( الدراجة والدراجة البخارية والسيارة ) بعد قليل الى اعطاء ابعاد جديدة للاتساع التقليدى واستعادت التجارة واوجه نشاط القطاع الثالث ( الذى يعمل فى التجارة والخدمات وخلافه ... ) اهمية جديدة فى حياة الزراعة . وبذلك عادت الحياة من جديد الى الكفور والمدن الصغيرة التى فقدت وظائفها كعواصم للبلاد بشكل بطىء منذ نصف قرن . وتحدث احيانا نهضة حقيقية لنفس الكفر ، وأحيانا يتم انشاء مركز جديد يحل محل تجمع سكانى فى حالة موات . وهكذا يشهد عالم الاجتماع على الخريطة مولد بناء زراعى جديد له ابعاد تختلف عن ابعاد البناء السابق .

وكانت القرية فيما مضى هى الخلية الأساسية فى الريف الفرنسى . ولاشك أن هذه الخلية الأساسية ستكون فى الغد هى القسم Canton (*) او أية وحدة جديدة مماثلة . ونظرا لأن القرية يقطنها مزارعون فقط ، فانها تقتصر على كونها كفرا صغيرا غير قادر على المحافظة على مظهر الحياة الاجتماعية . وبينما تشهد القرية — المركز والبندر أو المدينة الصغيرة — بناء مخازن تعاونية ومساكن ريفية ومدارس ... الخ ، تتحول كنيسة القرية فى معظم الأحيان الى كنيسة خالية ويزداد الحديث عن اغلاق المدرسة وتجميع

(*) اشبه ما يكون بالمركز في مصر .

الأطفال فى سيارة أوتوبيس ليتجمعوا فى المدرسة الموجودة فى عاصمة القسم canton فهل سيكون بامكان مقر العمدة أن يظل لفترة طويلة المؤسسة الوحيدة فى القرية la commune اذا لم تكن هنـاك كنيسة او مدرسـة ؟ فقد بدأت بالفعل شبكة من الروابط الاجتماعية تربط بين المراكز عن طريق المؤسسات الزراعية ( النقابات والتعاونيات وصناديق القروض ) ومن خلال حركات الشباب والمؤسسات المتنوعة . كذلك تؤدى حفلات الرقص التى تجتذب الشبان من راكبى الدراجات البخارية بعيدا عن قراهم فى حلقات الرقص الى تشجيع عمليات الزواج خارج منطقة الزواج الداخلى التقليدى .

ويظل الاتساع الكبير للبيئة الريفية يفرض تأثيره الطاغى على المجتمع الريفى ، ولكن نقص الكثافة البشرية وتطور وسائل النقل أدت الى تعديل ابعاده . ويظل من المهم بالنسبة للريفى أن ينتمى الى هذه الناحية او تلك ، ويظل عالمه الاجتماعى محدودا فى جزء منه بواسطة حدوده الجغرافية أكثر من حدوده الاجتماعية . وهكذا فان الدراسات النفسية الاجتماعية حول تمثيل مختلف الاتساعات المكانية ستقدم دون شك معطيات هامة : كيف تم ترجمة تحول الايكوولوجيا فى عقلية الريفيين ؟ وكان لابد من أن يطرأ تعديل هائل على صور المكان الذى يعيشه الناس سواء كان معروفا أو غير معروف ( أو معروفا بطريقة خاطئة ) .وقد أصبح الفلاح اليوم لا ينظر بنفس الطريقة التى كان ينظر بها جده الى الناحية التى يسكنها .

ثم ان للاتساع المكانى تأثيره الطاغى كذلك على العمل الزراعى . ويقال غالبا على سبيل المزاح أن الاستغلال الزراعى هو عملية مواصلات قبل أى شىء . والواقع أن الآلة فى الصناعة تكون ثابتة بينما تكون المادة هى المتحركة . اما فى الزراعة فيكون العكس ، فالآلة هى المتحركة بالنسبة للأرض . ويفسر لنا هذا ضآلة استخدام الآلة البخارية فى الزراعة . وكان دخل الجرارات البخارية التى بدأ استخدامها فى نهاية القرن المـاضى فى المزارع الكبرى فى « ميدل وست » Middle West أو فى بوميرانيا Pomeranie لا يزيد الا بمقدار طفيف جدا عن دخل الجرار الذى يجره الحيوان . ولم تستخدم الآلة البخارية من الناحية العملية الا فى تشغيل آلة الدرس . ولذلك أصبح اسمها

« الآلة » فى لغة الفلاحين الفرنسيين ، الذين أصبح استخدام الآلة machiner بالنسبة لهم يعنى « درس القمح » .

وكان الموتور الذى يعمل بالوقود السائل ( النفط ) أول ما ادخل تغييرا جذريا فى العمل الزراعى ، يمكن مقارنته بالتغيير الذى احدثته فى دنيا العلاقات . واعطى الجرار أبعادا جديدة للاتساع المكانى . وكانت الحقول تقاس من قبل بالمساحة التى يعمل فيها رجل ما هو وادواته خلال النهار الواحد . أما اليوم فان الحقول تقاس بعمل الجرار او آلة الحصاد والدرس خلال الساعة الواحدة . وأصبح المزارع ينتقل بشكل أسرع فى حقول اوسع ولكن علاقته بالأرض كخير لا تزال فى أساسها هى نفس العلاقة. وآلة الحصاد والدرس وحدها هى التى حررت الانسان من عبودية الاتساع المكانى . فهى بقيامها بمهمتين فى وقت واحد من حصاد ودرس للمحصول تنقل بشكل ما مجال درس المحصول الى الحقل وتدخر كثيرا من عربات النقل اليدوية لأعمال التفريغ وان كانت هذه حالة محدودة الانتشار .

وصحب ادخال ماكينات جديدة ادخال عمليات بيولوجية جديدة ايضا مثل : استخدام الأسمدة ، وزراعة العشب ، وانتقاء الماشية . كما ادى ترشيد تغذية الأرض والماشة الى زيادة انتاج هذه الأرض والماشية الى الضعف ، والى خمسة اضعاف أحيانا .

واذا كانت الثورة الصناعية الأولى لم تؤد الى تغيير الريف مطلقا ، واذا كان من الممكن أن تظهر الزراعة فى القرن الماضى ، على عكس الصناعة ، كملجأ للبطء وعدم قابلية التغير ( اذا أن « شيئا لم يتغير منذ هيزيود Hesiode فان الثورة التقنية الثانية قد فجرت على العكس « ثورة زراعية » حقيقية بعد ذلك وتطور الريف بأسرع مما تطورت قطاعات صناعية كثيرة . وارتفع عدد الجرارت فى فرنسا ، خلال عشر سنوات ، من خمسين الف الى خمسمائة الف جرار .

وادى غزو الأساليب التكنولوجية ، حتى لا نقول غزو العلم ، لعمل المزارع الى تغيير جذرى ايضا فى مواقفه ازاء الطبيعة . فقد كان الفلاح

التقليدى يستخدم الآلات الطبيعية ، ولكنه لم يكن يسيطر عليها ، بل كان خاضعا لها . وكانت الأرض بالنسبة له عبارة عن ريف قديم مستبد ، وكان عليه أن يتحمل نزواتها . وعلى عكس ذلك نجد المزارع الحديث يسيطر على الطبيعة ويخضعها لرغباته ويطوعها وفق هواه . وأصبحت الأرض عامل انتاج من بين عوامل أخرى ولم يعد يعلق على هذا العامل قيمة روحية خاصة . واكتسب عقلية تكنولوجية ، أخذ يكتسب بعد ذلك تدريجيا عقلية اقتصادية . ولم يعد المشروع الزراعى فى النظام الاقتصادى الحديث موجها نحو اشباع احتياجات أسر ما ، بل أصبح موجها نحو الانتاج من أجل السوق . وخلص البعض من ذلك الى أن الزراعة كانت ستحذو حذو الصناعة وانها ستتمركز فى مشروعات راسمالية او جماعية كبرى . ولكن التأثير الطاغى للاتساع المكانى la servitu de l'étendue وفشل الآلة البخارية اكدتا ، على العكس ، انتصار الاستقلال الأسرى . ولا تتطلب أهم الآلات ، وهى آلة الحصاد والدرس ، اكثر من ثلاثة رجال . كما أن استخدام عدة آلات فى وقت واحد لا يرفع الايراد بشكل ملحوظ .

وهكذا فان الاعتماد المتزايد لفن الزراعة على التكنولوجيا ، والذى يتطلب من المزارعين تخصصا أوسع ، يجد نفسه فى صراع مع الرغبة فى المحافظة على البناء الأسرى للمشروع . وليس المزارع رئيسا للمشروع ومديرا تجاريا فقط ، بل ينبغى أن يجعل من نفسه محاسبا وممارسا للتجارب وميكانيكيا ومزارعا ومربيا للماشية ، وهو أخيرا فى معظم الوقت عامل يدوى ايضا . وهكذا يستحيل عليه أن يكون على علم بجميع أوجه التقدم فى الأساليب التكنولوجيا المتنوعة التى يستخدمها وعلى علم بتقلبات السوق وتعتبر زراعة المحصول الواحد تلبية جزئية لهذه المتطلبات المتناقضة. وهكذا فان زارع الكروم أو مربى الماشية متخصصان لايعرفان سوى الكروم أو الأبقار ، وبالتالى ينبغى أن يكونا تجارا . ويضارب مربى الماشية بالذات على سعر الماشية الهزيلة التى يشتريها على أساس سعر البيع الذى يتوقعه .

## ثانيـا : اختلاط الأدوار

يطرح هذا الاختلاط فى الأدوار داخل المشروع مشاكل اقتصادية واجتماعية خطيرة . ومن شأن انشاء التعاونيات بشتى أنواعها ( شراء ، بيع ، قرض ، دراسات تقنية ، استخدام الادوات ... الخ ) أن يتيح للمزارع التخلص من بعض أدواره ، واسنادها الى بعض المتخصصين ( المديرين التجاريين ورجال البنوك والمهندسين الزراعيين ... الخ ) . ولكن ذلك لا ينتقص من احتفاظه بسلطة اتخاذ القرار . لذلك نجد أن المهندس فى المشروع الزراعى يعد مستشارا دائما ، ولا يكون رئيسا على الاطلاق ، على خلاف ما يحدث فى الصناعة . وهكذا ينبغى عليه أن ينال قبولا عند المزارع اذا كان موفدا من الحكومة ، أو ان يضع نفسه فى خدمة جماعة من المزارعين وتدفع له مكافأة ( على نحو ما يفعل مركز الدراسات التقنية الزراعية ) . وفى الحالتين يتطلب الحوار من جانب المزارع اعترافا بقيمة العلم ، وهو أمر غير معتاد لدى الفلاح الذى تعتبر كل معارفه تجريبية وتقليدية . ويحدث نفس الشىء بالنسبة للجانب الاقتصادى فى الادارة . فلا يستطيع مدير الجمعية التعاونية او رائد النقابة الا أن يقترح تطوير انتاج معين . وهكذا فان أساليب اتخاذ القرارات الجماعية والفردية يعد مشكلة رئيسية بالنسبة لتطور الزراعة « الراسمالية » . وتثبت نماذج الجمعيات التعاونية المتعددة الوظائف التى أنشئت فى الصين ، وفى يوغوسلافيا ، أن اللبس فى التخصص الزراعى يثقل ايضا على الانظمة الجماعية .

ويصاحب اختلاط الأدوار فى المشروع الزراعى توافق بين الاسرة والمشروع فى معظم الأحيان . ويقود هذا التوافق المزارع الى اتخاذ قراراته وفقـا لدوافـع اسرية واقتصـادية ايضـا . وهـكذا يكـون الأب ، وهو رئيس المشروع ، مسؤلا عن التدريب المهنى بالنسـبة لأولاده والأم هى التى تتولى الحسابات فى معظم الأحيان . واخيرا فليس هناك تمييز

ممكن بين العمل الانتاجى المباشر والأعمال المنزلية وعمليات الاصلاح والترفيه . ويلجأ العامل — عند خروجه من المصنع — الذى يقوم بعزق ( حرث ) بستانه للفاكهة أو بصنع نماذج للطائرات بعمليات ترفيه ايجابية . ويختلف الأمر بالنسبة للمزارع الذى يجدل بعض السلال أو يقرأ صحيفته النقابية . فكيف يندهش المرء اذن من أن تدار المشروعات الزراعية باسلوب « رب العائلة الطيب » وأن تسيطر على عقلية رؤساء هذه المشروعات عقلية المستهلك اكثر ما تسيطر عليها عقلية المنظم ؟ ويمثل شراء الجرار استثمارا بالنسبة للمستغل ، ولكنه أيضا وسيلة يتجنب بها العامل المشقة ، واداة للحصول على المكانة بالنسبة للاسرة . ويعتبر فى التحليل الأخير تنازلا من الأب لابنه لكى يحتفظ به فى الأرض . ومهما قيل فى شأن المزارع فانه يحسب الأمور ، ولكنه يحسبها بطريقة مختلفة اكثر الاختلاف عن طريقة الاقتصادى ، وتستحق مناهجه فى الحساب «الاقتصادى » تحليلا علميا منهجيا . وقد يخرج عنها مفهوم للاقتصاد يختلف اختلافا بعيدا عن مفهوم الاقتصاديين التقليديين ، ولكنه مفهوم مفيد يمكن أن يؤدي الى توضيح الأمور .

ويقوم المجتمع القروى ذاته على أساس هذا الاختلاط فى الادوار ، حيث أنه عبارة عن جماعة يعرف افرادها بعضهم معرفة متبادلة ، لكل فرد فيها ادراك شامل وليس وظيفيا بشخصية الآخرين . ويضم المجلس البلدى نفس الأشخاص ، مع بعض الاستثناءات الطفيفة ، الذين يضمهم مجلس ادارة النقابات أو الجمعية التعاونية ( اللهم الا اذا كانوا ينتمون لاتجاهات سياسية مختلفة ). ويعرف كل مستشار وكل ادارى الأدوار الاجتماعية ، وجميع جوانب شخصية كل من زملائه . وينتج عن ذلك بالطبع تجسيد للوظائف والمؤسسات فى الأشخاص المكلفين بها : العمدية ( وظيفة العمدة ) ويجسدها العمدة ، أو السكرتير والكنيسة ويجسدها الكاهن ( راعى الكنيسة ) . وهكذا تفهم الحياة الاجتماعية على أنها تداخل فى أفعال الأفراد ، ويعزى اى حدث الى ارادة رجل ما . وتعتبر لعبة المؤسسات والوظائف المجردة ( منطق الموقف ) حقائق تفتقدها التجربة الاجتماعية للقرويين الذين يجدون بالتالى صعوبة شديدة فى تعاملهم مع النظام السياسى والاقتصادى الشامل ويؤكد هذا الافتراض الصورة التى يتخيلها الريفيون عن المجتمع الفرنسى

والحكومة كما أمكن الحصول عليها من خلال عدة مقابلات ومن خلال الكتب المتعلقة بالمنظمات الزراعية .

ولكن هذا النظام القائم على المعرفة الداخلية المتبادلة يمنع اى اختيار فى العلاقات الاجتماعية . ففى الريف لا يوجد أصدقاء ، وانما هناك جيران واقارب فقط وتمارس الحياة فى اطار من الود الجماعى الكبير للغاية مع الجميع ، بحيث يصبح من الممكن خلق روابط خاصة لاتقوم على أساس قرابة جغرافية أو عائلية ، أو صلة قائمة على المصالح الاقتصادية والاهتمامات السياسية والدينية .

ويتطلب حسن سير العمل فى المجتمع القروى أن يقبل كل فرد ايضا ، ولو ظاهريا على الأقل ، القوانين التى تحكم السلوكيات ونظام القيم السائدة من قبل . وكل من يسعى الى التفرد يحدث اضطرابا فى حسن سير الحياة الاجتماعية وهو ما يفسر لنا لماذا لا يريد أى شخص فى أى اجتماع أن يبدى رأيه أولا ، اذ ينتظر كل شخص التوصل الى رأى مشترك حتى ينضم اليه أو يعارضه . ومما يعزز هذا الأسلوب فى الحركة أن البيئة الريفية لا تعطى قيمة كبيرة للآراء والاعراب عنها شفهيا . وتظهر المواقف العميقة عادة عبر السلوكيات التى يكون لها مغزى لا ريب فيه حيث يعرفها الجميع . والكلام لا يضيف شيئا بل يستخدم غالبا فى اخفاء المعنى الحقيقى للسلوك أكثر مما يعبر عن موقف ما . وفى هذه الظروف تتم ممارسة الضبط الاجتماعى من خلال أساليب واجراءات تختلف تماما عن أساليب المدينة . فيكفى لأى مراقب أن يشاهد زيدا أو عمروا فى مكان ما أو ساعة ما كى يعيد جدوله الزمنى من جديد . فاذا كان تواجده هذا بالصدفة غير معتاد ، فانه سرعان ما يتم التقاء مع مراقبين آخرين ، ويؤدى ذلك الى تفسير هذا التواجد .

ويتميز الأفراد الذين يتشـــكلون ويتطورون داخل مثل هذه البيئة الاجتماعية بطباع ذات ملامح متميزة . وللأسف أن الدراسات المتاحة حول

تكوين الشخصية داخل الأسرة والمجتمع الريفيين نادرة كل الندرة (٨) . وطفل الريف مندمج بعمق فى بيئته التى يعيش فيها ويتطابق بسهولة مع والديه الذين يتقاسم معهم المسئولية منذ مرحلة مبكره جدا من حياته . وهكذا يتضح أن البيئة الريفية تشجع قيام اندماج مبكر للشخصية . وعلى عكس ذلك نجد أن استحالة حصول الفلاح الشاب على استقلال ذاتى كامل طالما أن والده لا يزال رئيسا للعمل الاقتصادى وبالتالى رئيسا للاسرة ، هـذه الاستحالة تؤجل اكتمال نضجه الى سن متاخرة اكثر . ولكن الأطفال والبالغين يبدون رغبة شديدة فى التملص من هذه السيطرة ، ويبدون عدم الرضا الشديد ازاء وضعهم فى المجتمع .

وتبين هذه الملامح التى أجملناها بسرعة اصـالة المجتمع الريفى التقليدى بالنسبة لمجتمع المدينة . وتتيح هذه الأصالة مجالا فريدا أمام عالم الاجتماع بسبب الحجم المحدود لهذه الجماعات واصالة بنائها . والدراسات التى تتناول هذه المشاكل بالغة الندرة ، بحيث انه لا يمكن تقديم شىء سوى مجرد افتراضات عامة ينبغى اخضاعها لتجربة الواقع . وقد وصف المؤرخون وعلماء الاثنولوجيا بعض الحالات التى أمكن ملاحظتها بسهولة بسبب الالحاح المستمر على اساليب الحركة . وان لم يتوصل هؤلاء العلماء بعد الى اكتشاف اسلوب ادائها الوظيفى ومتغيراتها الاقليمية وتحولاتها الراهنة . ولنضرب مثلا على ذلك نجد أن ظاهرة استقطاب الحياة الاجتماعية للقرى حول عدد معين من المخارج الثنائية ( الاغنياء والفقراء ، الرجال والنساء ، البيض والرزق ، الخ ) تتطلب بحوثا متعددة ستتيح دون شك فهما افضل للعمل السياسى على المستوى المحلى وعلى المستوى القومى ايضا ، فضـلا عن المشاكل الأخرى .

---

(٨) Cf. Maurette, Gratiot — Alphandery et al., Loisirs et formation Culturelle de l'enfant rural, Paris P. U. F., 1956, 345 — XXXIV P., et A. Duffaure et I. Robert, Une methode active d'apprentissage rural, Les Cahiers de l'exploitation familiate, Paris, E. A. M. 1955, 248 P.

## ثالثا : التغير وتغلغل المجتمع الكبير فى المجتمع القروى

على أن الملاحظ أن هذا المجتمع التقليدى ينفتح بشكل متزايد على تغلغل ثقافة المجتمع الكبير . ويثير هذا الانفتاح ولا شك صراعات وتوترات. وطالما كانت أغلبية السكان تعيش على الزراعة وكان للطبقة المسيطرة مصالح زراعية ، كان هناك نوع من الاختلاط بين المجتمع الريفى والمجتمع الكبير . وادت عملية التحضر Urbanisation والتصنيع على العكس الى ايجاد صدع بين الاثنين . ويشعر الفلاح اليوم أنه على هامش الأمة التى يحتفظ بصورة مبتورة عنها . كما أن سكان المدن من جانبهم يقيمون علاقات تفقد بشكل متزايد طابعها كعلاقات وثيقة ومستمرة مع الريف . كما تقدم لهم اساليب الاتصال الجماهيرى صورة تفتقر للأصالة وتنطوى على فعالية تاريخية . وهكذا فان المسافة التى تكونت فعلا تجعل من الصعب استئناف الاتصال . ولكن الريفيين استطاعوا فى نفس الوقت أن يدركوا تخلفهم التقنى وتخلفهم الثقافى ، وهم يجتهدون بحماس فى تعويض هذا التخلف . وتحولت جميع المجتمعات الريفية التقليدية نحو استمرار التوازن البنائى الذى يمثل نقطة النهاية فى سلسلة تطور طويلة . ويثبت التاريخ الزراعى الأوربى أن التقنيات والأنظمة الزراعية والابنية الاجتماعية تطورت كثيرا منذ العصور القديمة . بل كانت العصور الوسطى ذاتها عصرا للتجديد والاكتمال مثل : النير الذى يلف رقبة الجواد واستزراع الدخن والحرث فى شهر يونيو ، الخ . أما عن التاريخ الزراعى منذ عصر النهضة فان المؤرخين والجغرافيين يتناقشون لتحديد طبيعة تلك المرحلة فيما اذا كانت تمثل « ثورة بطيئة » أم « تطورا سريعا » . ومع ذلك فان هناك فرقا أساسيا بين هذا التطور التقليدى والحركة الراهنة لتحديث العمل الزراعى وكان التغير فيما مضى يتم بشكل بطىء ، حيث كان يتعين على اى تجديد أن ينتظر جيلا على الأقل لكى يحتل مكانه فى هذا النسق ، وحتى يقبله الجميع كعنصر من تراث الجماعة . أما اليوم فقد أصبح التغير السريع والمستمر يمثل ، على

العكس ، احد الضروريات الأساسية للاستغلال الزراعى . واذا كان المزارعون يسعون بشغف الى الأخذ باسباب التحديث ، فانما يتم ذلك على أمل الوصول بذلك الى توازن جديد فى الاستقرار . وقلة نادرة فقط هى التى كانت تتصور انه كان يتعين عليها أن تظل على استقرارها فى خضم ذلك التغيير .

ولم تطرح مشكلة ما يسمى « بالروتين » القروى طرحا صحيحا حتى الآن . ورأى الباحثون أن جمود الزراعة ان هو الا نتيجة للبطء الذى تتميز به « الروح القروية » بينما الأمر كما قلنا يتعلق أساسا بظاهرة تقنية فى الأصل ، مثل الآلة البخارية فى الريف . وبعد أن أصبح المزارعون يملكون اليوم تقنيات ملائمة أخذوا يلجأون اليها باستمرار ولو دون روية كما يرى عالم الاقتصاد الذى يحكم عليهم بأن لديهم فائضا من المعدات الآلية . ولكنهم يستمرون فى الحياة فى ابنية زراعية واجتماعية وفكرية تنطوى على مفارقات تقيد حركتهم أو تحولهم عن جهدهم . ولا شك أن التحليل المنهجى لهذه الصراعات فى الابنية سيلقى ضوءا جديدا على جميع جوانب هذه المشكلة . ويكفى هنا أن نتناول تأثير التدرج والحراك الاجتماعى .

وفى المناطق التى يوجد فيها تدرج اجتماعى حقيقى ابتداء من عمال اليومية حتى ساكنى القصور فاننا نجد أن وضع نظام محكم جدا للحراك يتيح بالطبع لأية أسرة ، خلال أجيال عديدة ، ان ترتقى من مستوى الى مستوى فيصبح عامل اليومية مستأجرا للأرض . ثم بعد أن يحصل على الماشية يأخذ مزرعة ويصل فى النهاية الى تكوين مشروع استثمارى صغير ويصبح ابنه او صغيره تاجرا بل وقد يصبح برجوازيا ، وبعد أن يحصل على « ضيعة » وكان يمكنه فى ظل النظام القديم أن يتطلع الى الحصول على لقب « نبيل » . والحصول على المكانة القائمة على أساس امتلاك الأرض فى مثل هذا النظام الاجتماعى كان هو المحرك الأساسى ولم يكن النجـــاح الاقتصادى سوى وسيلة ضرورية ولكن غير كافية لزيادة المكانة .

ونظرا لأن سيد القصر كان يملك وحده الاتصالات الضرورية مع الاوساط العلمية ، ويملك قدرة اقتصادية تسمح له بمحاولة اجراء بعض التجارب ،

فكان هو الوحيد بالطبع الذى يستطيع ادخال التجديد فى النظام الزراعى المعمول به . وكان سيد القصر يقرأ الصحف والكتب ويقضى الشتاء فى المدينة ، ثم كان بمقدوره أن يجرب فى احد الحقول الأسلوب الجديد أو الآلة الجديدة . ولو انتهت التجربة الى الفشل ، فلن يؤدى الاستثمار الذى استخدمه الى افلاسه ؛ أما فى حالة النجاح فكان بمقدوره مواصلة التجربة حتى تظهر نتائجها بالكامل . وكان يكفى فى هذا الوقت أن يطلب منه الفلاح النصيحة أو مجرد تقليده ، حتى يستفيد من التقدم دون تعرض نفسه لأى مخاطر . وكان ميكانيزم الانتشار هذا يتكامل مع النسق الكلى ، حيث أن سيد القصر يتمتع بأكبر مكانة ويمثل القدوة لكل القرية . ولذلك فان من يحذو حذوه من الناحية التقنية كان يتصور بذلك أنه يقيس نفسه به ويشاركه مكانته . والتقى التقدم التقنى والحراك الاجتماعى فى نسق واحد يركز على الوضع الاجتماعى وليس على الدخل الاقتصادى .

ولن يكون فى المجتمع الريفى الذى نشهد تكوينه تحديدا خاصا للتدرج يماثل تحديد التدرج فى المجتمع الكبير . وتتركز الأراضى فى المناطق التى يوجد بها زراعة عائلية متنوعة ، فى مشروعات متوسطة لاختفاء المشروعات الصغيرة وبسبب تفتت « الضيعات الكبيرة » ( الملكيات الكبيرة ) . وفى مناطق « الزراعة الكبرى » تتجاور مشروعات الاستغلال على مستوى الأسرة مع مشروعات الاستغلال الكبيرة التى تستخدم — بوفرة الى حد ما — الأيدى العاملة الأجيرة . وفى الحالتين أدى اختفاء الأوضاع الوسيطة بين الأجير والمستغل ( سواء كان مالكا للأرض أو مالكا للماشية فقط ) الى جعل الانتقال من حالة الى أخرى أمرا يكاد يكون مستحيلا . واختفت ظاهرة استئجار الأرض ، باستثناء بعض الأقاليم المحدودة جدا ، ولم تعد ضخامة رأس المال فى المشروع تسمح بالبدء بداية ضئيلة .

والواقع أن الأرض كانت فيما مضى تمثل أساس رأس المال فى أى مشروع زراعى متوسط الحجم . ولذلك كانت دراسة علاقات الملكية ذات اهميـــة أساسية لفهم البنـــاء والتدرج فى المجتمع الريفى . والواقع أن جزءا من المؤلفات السوسيولوجية فى نهاية القرن الماضى كان يختص بتناول ذلك

الموضوع فعلا . وما زالت ملكية الأرض اليوم ، فى الأقاليم التى لا تـزال تحتفظ بالطابع الاجتماعى التقليدى ، مصدرا ودليلا على قوة الكبار وموضع الرغبة الشديدة من الصغار ، وحول هذه الأرض تنتظم كل الحياة الاجتماعية. وعلى العكس من ذلك نجد فى أى مشروع زراعى حديث ان قيمة راسـمال المشروع والماشية الحية والميتة تكون على اقل تقدير معادلة لقيمة الأرض والمبانى . وينجم عن ذلك أن المزارع ، وهو مالك راسمال الاستغلال ورئيس المشروع ، يصبح هو الشخصية الرئيسية فى المجتمع الريفى ويتلاشى دور المالك . وقد عملت التشريعات التى صدرت أخيرا فى فرنسا على تدعيم وضع المزارع . ومع ذلك فلازلنا نجد قدرا كبيرا من التنوع فى الأوضاع الاقليمية الذى نراه جديرا بدراسة عميقة لا تغفل وضع الأراضى الجماعية . فهناك مثلا : منطقة حوض باريس حيث يستأجر بعض المزارعين مئات من الهكتارات من عدد كبير من الملاك وقرية بريتون Breton التى يسيطر عليها المالك الكبير الذى يملك عدة مزارع متوسطة وقرية « مرتفعات البيرينية » Pyréneen حيث نجد جزءا كبيرا من الأراضى التى زرعها ابناء تلك القرية مملوكا لأبناء القرى المجاورة . هذه القرى الثلاث تمثل أنماطا متطرفة يندرج بينهما كثير من الأنماط الوسيطة التى يسكنها ملاك مستغلون . ومن البديهى أن المكانة الاجتماعية لم تكتسب بعد أى معنى فى مجتمع مازال مؤلفا من مزارعين ومستغلين فقط . ويمكن القول ان المميزات التقنية او النجاح الاقتصادى هما اللذان يسمحان لأحد المزارعين أن يتميز عن جمهور الناس ، وان يثير التقدير أو الحسد فى نفوس جيرانه . ولم يعد لتكديس رأس المال اعتبار فى حد ذاته ، ولكن كوسيلة للانتاج ، وأصبح الدخل هو المعيار الرئيسى فى التمييز الاجتماعى ، وانه يسمح بالخروج من القرية للذهاب الى المدينة واستعارة أسلوب حياة سكان المدينة . ويقدر ظهور هذا النظام الاجتماعى الجديد بقدر ما سوف تطرح مشكلة التغيير والتقدم التقنى نفسها علينا بطريقة جديدة ، حيث سيصبح من الممكن أن تلعب حركة الدوافع الاقتصادية دورا واضحا .

ويؤدى اختفاء التدرج الاجتماعى التقليدى الى تحويل البيئة الريفية الى عدد من الطبقات الاجتماعية التى تأخذ مكانها فى تدرج المجتمع الكبير . وكان الانتقال فيما مضى يتم بين مستويين متوازيين وعلى درجة متساوية ،

فيصبح العامل الأجير عاملا فى مصنع والفلاح الصغير والتاجر الصغير أو الموظف والفلاح الكبير يمكنه أن يعلم أولاده حتى يجعل منهم أطباء وموثقين أو من كبار الموظفين . وفى الاقاليم الأكثر تطورا نجد اليوم أن ابناء المستغلين الذين يريدون ترك الأرض يقبلون على الدراسة وتنتقل الغالبية العظمى منهم الى الطبقة المتوسطة عندما يصبحون أصحاب وظائف أو تجارا هذا بينما يمكن تفسير الهجرة الجماعية الريفية على أنها انتقال من مجتمع أو من بيئة الى أخرى ، وهى ليست سوى شكلا من أشكال الحراك الاجتماعى. ومن الواضح أن هذا الموقف الأخير لم يتحقق فى فرنسا الا فى أكثر المناطق تحضرا ، وحيث يكون المزارعون على علاقات وطيدة ودائمة مع احدى المدن، حيث يبيعون منتجاتهم وحيث يجدون خدمات الادارات الزراعية والجمعيات المهنية .

وهكذا ينبغى بعد ملاحظة الملامح الأساسية التى تميز البيئة الريفية عن البيئه الحضرية (*) ان يضع المرء نفسه فى المجال المعاكس . ولا يعنى ذلك سوى متابعة التغير السريع الجارى فى المجتمع الفرنسى . فالمزارعون يدركون رويدا رويدا الطابع الجديد لظروفهم ، ويلحظون انهم لم يعودوا بعد « قاعدة الهرم »الوطنى » ولا أغلبية « الشعب الفرنسى » ، ولكنهم يميلون الى أن يصبحوا قطاعا اجتماعيا واقتصاديا من بين قطاعات أخرى . وهكذا ينظرون تجاه الجماعات الأخرى والقطاعات الأخرى ويقومون — على غرار هذه الجماعات والقطاعات — بانشاء نقابات و « جماعات ضاغطة »، ويلجأون الى المظاهرات الجماهيرية والاضرابات واقامة المتاريس فى الطرق .

ولكن قدرتهم على اللجوء فى نفس الوقت الى المناهج التى تستخدمها الجماعات ذات المصالح الاقتصادية والأساليب الجماهيرية فى التقدم بالمطالب تؤكد أنهم مازالوا يحتفظون بوضع فريد . فهم ليسوا أصحاب أعمال وليسوا عمالا يدافعون عن اجورهم بالدفاع عن فائض القيمة الخاص بهم ،

---

(*) أنظر مقال زيوبيرج « الفروق الريفية الحضرية » ترجمة د . محمود عودة في كتاب ميادين علم الاجتماع للدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ص ٦٩ — ١٠٦ .

( المترجمة )

والذين يستعيرون — فى سبيل الحصول على دعم السعر — كلمات وتعبيرات أبناء الطبقة العماليه . كذلك يعطيهم هذا الوضع المزدوج تمثيلا سياسيا متميزا أشد التميز ، حيث أن جميع النواب تقريبا لهم ناخبون من المزارعين . وبهذا يكون لهم فى البرلمان وزن هائل ، دون أن يكون هناك حزب زراعى يمكن مقارنته بالأحزاب العمالية . وهكذا فان التمثيل السياسى والمهنى للزراعة مشروط بالتوزيع المكانى للمزارعين وتعدد الأدوار التى يلعبونها .

ويبدو أن انخفاض عدد المزارعين لابد أن يؤدى الى انخفاض نفوذ القطاع الزراعى فى المحافل العليا للدولة . بينما نجد على عكس ذلك أن هذا النفوذ يزداد جزئيا لأن المزارعين يتغلغلون فى السوق ويصبحون بذلك قوة اقتصادية . ويظل الاكتفاء الذاتى بالغ الأهمية فى بعض الأقاليم ، ولا تزال توجد مزارع عائلية تنتج كل ما يلزم لاستهلاك الأسرة تقريبا ، ولا تقوم الا بتسويق الفائض من هذه المنتجات الغذائية ( بضع جولات من القمح وبعض اللبن وبعض الخنازير والطيور .. الخ ) . الا أن التخصص والميكنة ، فى المناطق الأكثر اتساعا ، يحولان المزارع الى مشترى وبائع : فهو يحتاج الى آلات ووقود وسماد وتقاوى بذور وحيوانات منتقاه ، وهو يقدم للجمعية التعاونية أو للتاجر نوعين او ثلاثة من المنتجات بكميات كبيرة ولكن نادرا ما تزيد عن ذلك . كما ينبغى على زوجته أن تذهب الى السوق — كأى امراة من المدينة — لكى تشترى مالا تنتجه المزرعة او ما تعود المزارعون مؤخرا على استهلاكه بكميات مثل سكان المدن ( كاللحوم ، والفواكه وباكورة المحاصيل ) ولا يعتبر تطور العادات الغذائية سوى جزء من التطور الشامل لأسلوب الحياة .

ويمكن القيام بدراسة واسعة حول انتشار ملامح الثقافة الحضرية فى الريف . ولاشك أن بعض الريفيين يحتفظون فى هذه الحركة التثقيفية بأشكال معينة من التراث الخاص كما يرتضون ملامح معينة او أنواعا معينة من السلوك الرئيسية و « تمدينا » فى أسلوب الحياة الريفية . ويستحق الدور الذى

تلعبه أساليب الاتصال الجماهيرى .. اهتماما خاصا . ولايوجد تحت أيدينا للأسف سوى ملاحظات متقطعة بشأن هذا الموضوع (٩) .

وينبغى فى نفس الوقت الذى يجرى فيه « تحضر الريف » ، أن نلاحظ اننا نشهد « عملية ترييف للمدينة » ( اضفاء الطابع الريفى على المدينة ) . فقد ظلت المدن الى عهد قريب محاطة بالأسوار أو بامتدادات من المشروعات الصناعية مما كان يميزها للوهلة الأولى عن السهول . ولاشك ان جميع المستويات الوسيطة كانت موجـــودة بين المدينـــة والقرية وكـــان يمكن اعتبار بعض المدن الصغيرة مدنا « ريفية » ، ولكن ذلك لم يكن سوى مشكلة « تعريف » . بينما نجد اليوم على عكس ذلك أن مساكن المدن تنتشر بعيدا عن مركز المدينة حتى تصل الى قلب الريف ، ولا يمكن تخطيط حدودها بشكل قاطع على الخريطة . وهناك اقاليم ظلت اقاليم ريفية بأكملها حتى وقت قريب وهى تتحول الى أماكن للاستجمام حيث تغزوها أماكن الاقامة لعطلة نهاية الأسبوع . وهناك ٨٥ فى المائة من القرى البلجيكية مازالت توفد عمالا الى أماكن التجمعات السكانية فى بروكسل . وينمو فى هذه المنطقة المخصصـــة للاستجمام نمط من الحياة يعد ريفيا نسبيا وان لم يكن ريفيا خالصا . وهناك ظاهرة أخرى لها دلالتها وهى أن الملابس هناك تكون « مهملة » أكثر مما هو فى المدينة . ومما يدعو للأسف أن هذه الظاهرة الرئيسية لم تكن موضـــع دراسة فى فرنسا حتى الآن .

---

(*) قارن الدراسة التى تقدم بها الدكتور محمد الجوهرى حول هذا الموضوع بعنوان « التراث والتقدم . دراسة في مستقبل التراث الشعبى » لمؤتمر علم الاجتماع والتنمية الـــذى نظمه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية في الفترة من ٥ — ٨ مايو ١٩٧٣ ، والمنشورة في : الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، دراسات في التنمية الاجتماعية ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ص ٢٢٤—٢٦٩ .

(*) انظر في هذا الصدد الدراسة التى تقدم بها الدكتور محمود عودة لنيل درجـــة الدكتوراه ، والمنشور في « أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى . دراسة ميدانية في قريـــة مصرية » ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

( المترجمة )

(٩) Cf. Joffre Dumazedier Télévision et éducation Populaire Paris U. N. E. S. C. O. Bourrelier 1955, p. 284.

ويصبح من الخطأ فى هذه الظروف عقد مقارنة بين المدن والأرياف . بل ينبغى بالأحرى تمييز أربعة أنماط من البيئات ، التى تتمتع كل منها بصفاتها الميزة الخاصة . فهناك النواة الحضرية Noyau urbain ، وهى مركز ادارى تجارى وصناعى ، ذات كثافة كبيرة من السكان أو العمال تنعزل بسهولة جدا . ثم هناك الأقاليم الزراعية تماما ، حيث يعيش كل السكان فيها على الزراعة بشكل مباشر أو غير مباشر . وعلى العكس من ذلك تكون المنطقة الحضرية Zone urbaine التى تضم جميع التجمعات السكانية التى تعتمد على النواة الحضرية . اما قرى الزراعة الصغيرة ilots الموجهة نحو تموين المدينة فتعد ظاهرة ذات واقع أكثر تنوعا ، وينبغى تحديدها فى كل حالة عن طريق دراسات خاصة . ومن المعايير الأساسية التى يمكن أن تساعد على هـذا التحديد أعداد العمال الذين يذهبون للعمل فى مكان آخر ، وعدم وجـود مؤسسات تجارية وثقافية نسبيا . والأقاليم الزراعية من جانبها تمد المراكز الحضرية الصغيرة بما يلزمها للحياة . وهذه المراكز بدورها تزود الأقاليم الزراعية بخدمات ادارية وتقنية وتجارية وثقافية . وتعتبر هذه المراكز دون شك جزءا من البيئة الريفية بقدر ما تظل الوظائف الصناعية فيها ذات أهمية ثانوية .

ومن شأن تحديد هذه الأنماط الأربعة أن يساعدنا على تحديد مشكلة العلاقات بين سكان المدن وسكان الريف بشكل أفضل . وأحيانا لا تكون هنا اية صلة بين البيئتين ، فالعمال يعشون فى « مدن » مشيدة من أجلهم ، ويظل المزارعون معزولين فى مزارعهم . واذا كانت المصانع تجمع اليد العاملة المتاحة فى القرى عن طريق دورة السيارات ، فاننا نجد على العكس أن نوعا من الحياة المختلطة « العامل ــ الفلاح » تسمح للمشتغل بأن يحتفظ بأملاكه وأن يذهب للعمل فى مصنع أو يرسل أولاده للعمل فيه . وهكذا تنزع المزارع الى العودة الى زراعة الاعاشة ، حيث ان الأجور تزود الاسرة بالنقود اللازمة .

وتعتبر دراسة تحولات الزراعة فى ضواحى المدينة Franges urbaines مجالا بدأ بالكاد استكشافه ، ولكنه يعد دون شك من أغنى مجالات الدراسة لأن التغيير فى داخله سريع وظاهر بشكل خاص .

فهل يمكن أن نخلص من هذه الملاحظات الى أن أهل الريف وأهل المدن بعد أن تباعدوا بدأوا يأخذون حاليا فى التطور نحو نمط واحد متكامل ؟ ان الخوض فى ذلك يعنى أن ينتقص المرء شخصية النبى ، وأن يحاول القفز الى النتائج بشكل متسرع . ومن البديهى أن الفلاح التقليدى الذى كانت الزراعة تمثل بالنسبة له دولة ونوعا من الحياة ، وليست حرفة أو مهنة ، هذا النمط من الفلاحين فى طريقه الى الاختفاء . وينزع المزارع فى المجتمعات الغربية الى اكتساب عقلية « رأسمالية » واعتبار الزراعة نشاطا اقتصاديا مثل أنواع النشاط الأخرى . وينبغى أن يربح المشروع الزراعى ويصبح العائد النقدى هدفا وجزاء على الجهد . وان الاهتمامات التجارية والميكنة تعمل على تغيير عقلية المزارع ونظرته الى العالم . وقد ذكرنا فى البداية أنه لاينبغى احتساب « البدائيين » من ضمن « الريفيين » ، ويمكننا أيضا أن نتساءل اذا لم يكن من الواجب اجراء تمييز اساسى بين الفلاح التقليدى والمزارع كما يظهر فى أكثر الأقاليم تطورا . وفى هذا المجال يوجد نمطان من البشر ينتميان الى مجتمعين مختلفين ، ويمكن تحليل جميع التغيرات التى سلفت الاشارة اليها عند الانتقال من نمط الى آخر .

* * *

ولكن الوقت لايزال مبكرا جدا لامكان تحديد نمط كامل للمزارع الحديث لأن المزارع الحديث يجرى حاليا تكوينه ومازالت تتحدد ملامحه فى البلاد التى وجد ولايزال يوجد فيها الفلاح التقليدى وفى الدول الحديثة ، وهو يتخذ مظاهر قد لا تتوفر له فى أماكن أخرى واذا كانت الملامح الأصيلة للبيئة الريفية — التى حاولنا ابرازها — قد فقدت مفعولها ، الا أنها لاتزال موجودة وتفرض نفسها على مزارعى الغد ، كما فرضت نفسها على آبائهم من قبل . فالسيارة تسمح باختصار المسافات ولكنها لا تلغيها . وسوف يستمر المزارع فى الحياة فى القرى التى يتضاءل عدد سكانها باستمرار أو فى مزارع معزولة . ولن تلعب أساليب الاتصال الجماهيرى ، المنفصلة عن العالم الحضرى ، نفس الدور مطلقا بالنسبة له ولا بالنسبة لأهل المدن ، كما أن علاقاته سوف تظل تحتفظ بطابعها الخاص .

ويهتم البعض اهتماما خاصا بابراز اصالة العالم الريفى المؤكدة من ناحية تأثير الطبيعة عليه ومن ناحية بعض الميكانيزمات البيولوجية . ويشعر المرء ان هناك مشكلة تتطلب ابحاثا متخصصة . ولكنه ليس هناك فى الوقت الراهن ما يسمح لنا بالتحدث عن طبيعة وناتج هذا التأثير ، ولذلك فاننا لم نمس هذا الموضوع من قبل . ومن المؤكد أن نسق فصول السنة والدورات المختلفة لنمو الخضر والحيوانات يفرض نفسه على المزارع كعامل وكرئيس للمشروع . واتضح أن أهمية الوقت تتضاءل بالنسبة لأهل الريف عنها بالنسبة لأهل المدن ، فهل ينبغى أن نرى فى ذلك اثرا مباشرا للنسق الذى ستفرضه البيطعة على ذلك الذى يعمل فيهـــا ، أو على العكس من ذلك ربما كان ذلك ظاهرة تخلف ثقافى مصيرها أن تختفى مع النفوذ المتزايد والتنظـــيم الاقتصادى الحديث ؟ فهل ستغزو « البيئة التقنية » كما يقول جورج فريدمان الريف باعتباره « بيئة طبيعية » من الطراز الأول ؟

ويبدو أن ظاهرة توافق الأدوار وتجسيد الوظائف لايزال يعتبر أحـــد الفروق الكبرى بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية . وطالما ظل الاستغلال الزراعى والأسرة مختلطين ، فان الحركة والمؤسسات ستعمل فى الريف بطريقة مختلفة . ولقد اشرنا الى بعض النتائج الناجمة عن هذا الخلط وخاصة على المستوى الذى تتخذ فيه القرارات . وعلى مستوى اشمل فان هناك نقلا للوظائف وآلية الحركة بين مختلف مظاهر الحياة الجماعية . وتقوم الجماعة الأسرية أو القريه بأداء بعض الوظائف التى تعتبر فى المدينة وفقا على جماعة أوسع وهكذا بالتبادل . وتكفى الاشارة هنا الى هـــذه المشكلة التى تدخل فى مجال النظرية الاجتماعية بنفس القدر الذى تدخل فى مجال بحث عالم الاجتماع الريفى .

تعتبر فرنسا بكل تأكيد من أفضـــل المجالات لدراســـة هذه المشـــاكل المختلفة . اذ نجد فيها تقريبا جميع الحالات الممكنة بين الشمال المتحضر للغاية ومقاطعة بريتانيـــا المكتظة بالســـكان والزراعة الكبرى فى « حوض باريس » Le Bassin de Paris والزراعة الأسرية المتعددة فى جنوب غربى البـــلاد ، والزراعة الواحدة فى منطقة Languedocienne ، وزراع الخضر فى

بيربنيان ... الخ . ومع ذلك فان هناك بعض الظروف الاقتصادية الاجتماعية التى يشترك فيها كل المجتمع الفرنسى . وهكذا ينبغى تجاوز الحدود الفرنسية والأوروبية لدراسة نفس المشاكل فى أطر اجتماعية مختلفة تماما . فلا يمكن ان يتم تطور الأبنية الاجتماعية والفكرية بنفس الطريقة فى بلاد توجد فيها الفلاحة التقليدية ، او فى « الدول الحديثة » أو « البلاد النامية » أو « الدول الاشتراكية » وقد تكون هذه الدول « الاشتراكية » من وجهة نظرنا هى أكثر الدول دلالة ، والتى ينبغى دراستها فى تنوعها التاريخى والمعاصر . فما هى رؤية أحد أعضاء « الزادروجا » اليوغوسلافية ، أو بالنسبة لفلاح صينى تم دمجه فى « النظام الاشتراكى » حديثا ؟ والى اى مدى يشعر هؤلاء جميعا بالاندماج فى مجتمعهم الكبير ، وما هى الصورة التى يتخيلونها لمستقبل حرفتهم ؟

وقد اقترح بعض علماء الاثنولوجيا الأمريكيين مؤخرا انشاء علم « مقارن لدراسة القروية » . واننا نرى أن المشروع اذا أخذناه بكل اتساعه يعد طموحا اشد الطموح . ولكنه سيسمح دون شك باستخلاص بعض الخطط النمطية للنظم والمؤسسات الريفية وبعض المشاكل الأساسية . وسيبدا فى الظهور معالم هيكل موحد لمختلف انماط المجتمعات القروية : بين المجتمعات التى تسمى « قديمة archaiques » من ناحية والتكامل المتقدم للزراعة الحديثة فى المجتمع الكبير أيا كان شكل هذا المجتمع الكبير — من ناحية اخرى.